إضاءة

يمكن أن نحصي ضمن هذه المدوّنة أكثر من مائة كتاب عربيّ ألّفت طيلة القُرون الماضية، تتبّعَ تواريخها ومضامينها صاحبُ «معجم ما أُلّف في فضائل وتاريخ المسجد الأقصى والقدس وفلسطين»، كما نجد هذه المناقب مبثوثة في كتب التاريخ وتفسير القرآن وأدب الرحلة

نجم الدين خلف الله

واقعةً في مفترق بين العقيدة والتاريخ، تبرز كُتب الفضائل كجنس خطاب، بات مهجوراً إلى حدٍّ كبير في أيامنا، غايته التعريف بالأفضليّة الدينيّة التي تكتسيها بعض الشخصيات والأزمان والأماكن في الضمير الجمعي. وقد شكّل بيت المقدس أحد أبرز عناصر هذه المدوّنة في الكتابة العربية، وذلك تجسيداً لموقعه كواحد من المواطن المقدّسة في الضمير الإسلامي، وهو ما يلخّصه القول السائد: أولى القبلتين ومسرى النبي محمد.

وأوّل ما يُمكن وضعه ضمن مدوّنة فضائل بيت المقدس هو النص القرآني. ففيه إشاراتٌ كثيرة صيغت بأسلوب التعظيم حتى سُمّيت إحدى سُوره بسورة «الإسراء»، احتفاءً بمحطة أساسية في مسار النبوّة المُحمّدية ارتبطت ببيت المقدس، ومن ثمّ زُوّيت عن النبي أحاديث عن تلك الرحلة كان بيت المقدس في صميمها. وهو كذلك جزءٌ لا يتجزّأ من سير أنبياء آخرين، لا تزال الشواهد في القدس تُومئ إلى آثارهم. فإذا أضفنا ارتباط كبار الصحابة مثل عمر بن الخطاب وبلال بن رباح، ومعاذ بن جبل بهذه المدينة المباركة، علمنا دوافع المسلمين، قديماً وحديثاً، إلى عدّ هذه المدينة إحدى مكوّنات الفضاء الروحي المُشترك، بل هم يرتبطون بتراث مشترك مع الأمم السابقة، إذ لم تُهمل مدوّنة القدس ما في المدينة من آثار أنبياء بني إسرائيل الذين طبّقت عليهم مقولة: «شرعُ مَن قبلنا شرعٌ لنا» واعتبرت رسالاتهم إعداداً لظهور الإسلام وتهيئة للعقول حتى تتقبّل مبدأ التوحيد وشرائعه، وبذلك أعاد المسلمون امتلاك تاريخ الأنبياء وتبنّوه، لأنّ الإسلام لا «يفرّق بين أحد منهم»، وهو ما يَسّر عمليّة دمجهم في التاريخ المقدّس.

ويمكن أن نحصي ضمن هذه المدوّنة أكثر من مائة كتاب عربيّ ألّفت طيلة القرون الماضية، تتبّعَ تواريخها ومضامينها الباحث شهاب الدين بهادر في كتابه: «معجم ما أُلّف في فضائل وتاريخ المسجد الأقصى والقدس وفلسطين»، ومن أشهر هذه المؤلّفات «فتوح بيت المقدس» لإسحق بن بشر، «مَن نزل فلسطين من الصحابة» لموسى بن سهل، «قضاة فلسطين» لأبي زُرعة الدمشقي، «فضائل بيت المقدس» للوليد بن حماد الرملي. ويبقى أشهرها «فضائل بيت المقدس» لابن الجوزي. كما نجد هذه المناقب مبثوثة في كتب التاريخ وتفسير القرآن وأدب الرحلة، ممّا يؤكّد تجذّرها في الضمير الجمعي وحضورها القويّ في سائر أجناس النّتاج الثقافي العربي الإسلامي.

وأما بنية هذه الكتب فتقوم على فصول قصيرة مادّتها روايات وأخبار دينيّة وتاريخية مثل آيات القرآن والأحاديث النبويّة التي وردت في فضل بيت المقدس، وقد يُعرّج على أقوال المفسّرين التي أغنت نصوص القرآن. ولئن بدت هذه الأخيرة في الظاهر محدودة فهي قاطعة الدلالة على المكانة العليا للقدس. وليست العبرة هنا في صحّة هذه الروايات ولا في ثبوتها من عدمه، وإنما في مدى سعة وظائفها الاجتماعية والنفسيّة لدى أجيال المسلمين. فقيمة هذه الأخبار، بما فيها الضعيفة والواهية، أنها أهابت بالمجاهدين حتى يحرّروا بيت المقدس من الصليبيين في القرون الوسطى. ولعلّها تفعل اليوم الفعل نفسه، خصوصاً إذا ما بُعثت في أشكال معاصرة، فتحرّكُ المناضلين وتشحذ هِممهم. ويثبت التأكيد المتواصل اليوم في خطاب المقاومة على محورية الدفاع عن بيت المقدس أنّ مكانته المعنوية ليست من الماضي ولا انقضى عهدها، وإنّما هي فكر حيّ يعيش في وجدان الأمة الإسلاميّة على تباعد ديارها، وهي من المشتركات القليلة التي تحرّك مشاعرهم على امتداد التاريخ والجغرافيا. ولهذا التراث بعدٌ سياسيّ، إذ كان بمثابة ردّ فكريّ على فظاعات الحروب الصليبية التي ادّت في مرحلة أولى إلى افتكاك بيت المقدس من المسلمين إلى حين تحريرها على يد صلاح الدين الأيوبي.

فلسطينيون يؤدون صلاة الجمعة الأولى من شهر رمضان في باحات المسجد الأقصى رغم قيود الاحتلال 15 آذار/ مارس 2024 (Getty)

شفافية الروح وكثافة التاريخ

ظلّ الكتّاب القدامى في فضائل القدس، ورغم المسحة الدينية لمصنفاتهم، متجذرين في كثافة التاريخ، اي في حاضرهم السياسي، متشبّثين بتلك الديار حقّا وارضا، لا يسمحون للغُزاة القادمين من اقاصي بلاد الفرنجة ان يحتلّوها باسم اساطير واهية، وبذلك فتحوا نهجا لمن يلحقهم كي لا يسمحوا باحتلال جديد باسم اساطير توراتية. لقد كانت كتب الفضائل مواءمة نادرة بين شفافية الروح وكثافة التاريخ، وحّدث بينهما «زهرة المدائن».

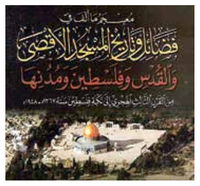

مدونة متجذرة في الضمير الجمعيّ والنتاج الثقافي الإسلامي

تقلّص عدد كتب فضائل بيت المقدس بسبب تداعيات الحداثة

وعليه كانت هذه الكتب ضرباً من المقاومة واستمراراً لواجب المجاهدة الذي أبلى عبره المسلمون البلاء الحسن دفاعاً عن دينهم وأرضهم.

وفي هذه الكتب أيضاً نضالٌ رمزيٌّ ضدّ بعض الخطابات اللاهوتية، اليهودية والمسيحانيّة، التي تدّعي الامتلاك الحصري لهذه المدينة بوصفها رأس مال رمزيّاً، لا يمكن للمسلمين المشاركة فيه ولا الانتماء إليه. فتهدف كتب الفضائل إلى تثبيت الحق الأيماني في هذه الأرض المقدّسة ثلاثاً، كسراً لأوهام التفوّق العرقي والديني.

وتبعاً لتأكيد الباحثين المعاصرين على الحضور القوي للعامل الأسطوري في هذا النوع من المدوّنات، بحيث لا يكون التاريخ إلّا طبقةً من الأحداث قبل أن تأتي الذهنيات الغيبية لتملأ فراغاتها فتصير المدن الرئيسية في هذه المصنّفات بمثابة «مدن فاضلة»، فإنّ نموذج المدوّنة المقدسية يُثبت فاعلية هذه الأسطرة في العديد من السياقات، إذ من دون استكناه هذا الارتباط القوي بين المسلمين وبيت المقدس ستُغفل التحليلات الجيوسياسيّة؛ أحد المحرّكات التي تغذّي الصمود الفلسطيني في وجه العدوان الإسرائيلي المستمرّ منذ نهوض المشروع الصهيوني، أي لأكثر من قرن تتابعت فيه الأجيال دون أن تفرّط في ارتباطها ببيت المقدس.

وفي هذا الإطار، نلاحظ تعسّر الفهم لدى النخب الغربية السياسية والأكاديمية، للقيمة الرمزية لبيت المقدس عند المسلمين، ولعلّ ذلك يعود إلى أن منعطف الحداثة أخفى هذا النوع من العلاقات الروحية التي يعقدها الناس مع المكان في الغرب، فبات من الصعب قياس علاقة المسلمين بالقدس بما هو معروف لديهم.

هذا وقد تقلّص عدد كتب فضائل بيت المقدس في الأزمنة القريبة بشكل ملحوظ. وقد يبدو ذلك من تداعيات الحداثة بعد أن فرضها الغرب في البلاد الإسلامية، لكن في الحقيقة لا يتعلّق الأمر إلّا بعزوف عن جنس خطاب بعينه؛ تضاعفت كتب فضائل بيت المقدس لكن تعظيم القدس حاضرٌ عبر أنماط خطاب جديدة تلعب الأدوار نفسها في استعادة اللحظات التأسيسية للأمة وربطها بأماكن بعينها.

(كاتب وأكاديمي تونسي مقيم في باريس)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

قراءة

مصعب أبو توهة قصائد تردُّ إلى العدوان

حين يخرج الشعر من القذيفة

لا تمر كلمة قذيفة في ديوان «تستريح الأرض من كلامنا» للشاعر الفلسطيني عفواً. ثقّة فيها وفي معظم القصائد ما يردّنا إلى العدوان الجاري على غزّة

عباس بيضون

مصعب أبو توهة، الشاعر الغزّي الذي ولد في عام 1992، لم يعد الآن في غزّة، رغم أنّه عاش في عدوانها شهوراً عديدة. إنّه يكتب شعراً باللغتين العربية والإنكليزية. مجموعته الأولى «أشياء قد تجدها مخبأة في أذني» صدرت بالإنكليزية. وها هي مجموعته الثانية «تستريح الأرض من كلامنا» تصدر عن «دار النهضة العربية»، وبالعربية هذه المرّة. لم نقرأ المجموعة الإنكليزية، لكنّ المجموعة العربية تُشعرنا منذ البدء بأنّ الشاعر أصيل في لغته، متمرّس بلعبة الخيال ولعبة اللّغة، وبالتالي نحنُ أمام شاعرٍ له قصيدته، وله طريقته وأسلوبه.

لا نعرف تماماً ما الذي دعاه إلى أن يقسّم مجموعته إلى جزأين، لكلّ منهما عنوانه الخاص. أما الأول فهو «أيها الوقت، قف وانتظرني ريثما أطعم الماضي من ثمار اليوم». لن نلزم أشعار هذا الجزء، بالعنوان الذي يدل، في أغلب مفرداته، على الوقت، ماضيه وحاضره. لكنّنا مع ذلك لا نمتنع عن الشعور بأنّ الزمن قد يكون حساسية الكثير من الأشعار والقصائد. لا نمتنع عن الشعور بأن الأشياء هنا مغمورة بزمنها، وأنّها تتحوّل تحته وفيه.

«العاشرة بلا دقائق» تقول قصيدة، لكنّنا لا نزال في سواها نحسُّ بهذه الدقائق. نحس بأنّها هي التي تحرّك «هواءً ساخناً»، وهي التي تدخل مع الريح «من بين يدي النافذة»، وهي المرأة «التي تنظر إليك»، وهي التي «تستغربُ كيف أصبحت مرآة/ كما تستغرب أنت كيف أصبحتَ إنساناً/ من لا شيء». وهي «آثار فمي على الفنجان الأبيض»، وهي الوقت الذي «يركض إلى الوراء».

لا نزال نحس ونحن نقرأ «هبطت طائرةٌ على جدار غرفتي/ حطّت بثقلها على صورة جدي»، أو حين نقرأ في سياق مشابه «تحطّ ذبابةٌ على أنفي/ تظنّه مهبط طائرات»، أنّ الصورة هنا تكاد تركّب لحظة ما، أنّ غرابتها هي التي تشكّل هذه اللحظة، أو تتشكّل منها.

لكننا أيضاً ونحن نقرأ إلى جانب ذلك «يحلم أن يطير بالركاب في طائرة/ وهو لا يستطيع أن يسافر خارج عتمته/ ولو مشياً»، لا نستطيع أن نمتنع عن الشعور بأنّ الطيران لا يتكرّر هنا عفواً، إنه يتحوّل إلى بؤرة كلامية، إلى مصدر تفاصيل تكاد تندرج في حكاية.

هذه الحكاية المُضمَرة، والتي تلوح من بعيد، ونشعر بها تسيل من فكرة أو حتى لفظة، هي ما يجعل القصيدة، رغم توزّع صورها وتفاصيلها، رغم تفرّق مفرداتها، تبدو مُوحّدةً، بل يبدو لها إيقاعٌ واحد. هكذا تصبح اللفظة الواحدة صنماً كلامياً، كما هو الأمر حين يعرض الشاعر لألفاظ بذاتها، كالبكاء أو الولادة أو الذبابة. ألفاظٌ تتولّد منها قصيدة كاملة، أو تتولّد منها حكايا خفيّة. هكذا يزاوج الكلام بين انزياحات الصور، وتشتّت الألفاظ، وتداعي الأخيلة، وبين نوع من فكرة واحدة، تتجلّى في إيقاع متكامل، وتنفرش على ما يشبه اللفظة، أو القطعة، أو الحكاية.

الجزء الثاني من الديوان هو الآخر ذو عنوان طويل: «الحفرة على الأرض تمخضت عن علاقة غير شرعية بين الرمل والقذيفة». هذا الجزء يكاد يختلف عن الأوّل، ويكاد يكون، بالنسبة له، غناء آخر وأطروحة أخرى. ليست كلمة قذيفة هنا عفواً، ثمّة فيها، بل في العنوان كلّه، بل في مجمل القصائد تحت هذا العنوان، ما يردّنا إلى العدوان الجاري حالياً على غزّة. لا أعرف توقيت كتابتها، لكنّي شعرتُ وأنا أقرأها بأنّ القصائد، في لمحاتها وسياقاتها ونفسها وتداعياتها، ترُدّ إلى هذا العدوان. فحين يقول الشاعر «لم يسرقوا فقط بيتك/ بل الطريق إليه أيضاً» لا نبتعد عن العدوان الجاري، فهذان الشطران قد يكونان عنواناً له. وحين نقرأ «بلادي تضيق بنا» و«طالت أظافرنا لنحفر قبورنا تحت شجرة السنديان» فنحن هنا في ما يكاد يبدو كلاماً مباشراً عن الكارثة الراهنة. وحين نقرأ «الحزن هو ساعي البريد الوحيد/ يكاد يمرّ على كل منزل» و«في الحرب تحتاج أن تبدل ملابسك في كل جنازة تخرج فيها»، نحن هكذا حيال إشارات صريحة، بل ومباشرة، للمأساة الغزّية. إشاراتٌ صريحة، بل وتفاصيل تكاد تكون أخباراً، بل نعياً مباشراً.

وحين نقرأ «يأتي دوري لأفتح حقيبة صديقي المفقود/ فأجد صورته قد ذابت من الألوان»، لسنا فقط في هذا الجزء أمام الزمن، نحن أمام لحظة سوداء منه، لحظة تسيل دماً وأحزاناً وفقدانات. الشعر هنا يكاد أن يكون تماساً مع الواقع، يكاد يكون صوته ووثيقته ونعيه البعيد.

(شاعر وروائي من لبنان)

قصائد تضعنا أمام لحظة سوداء، لحظة تسيل دماً وأحزاناً

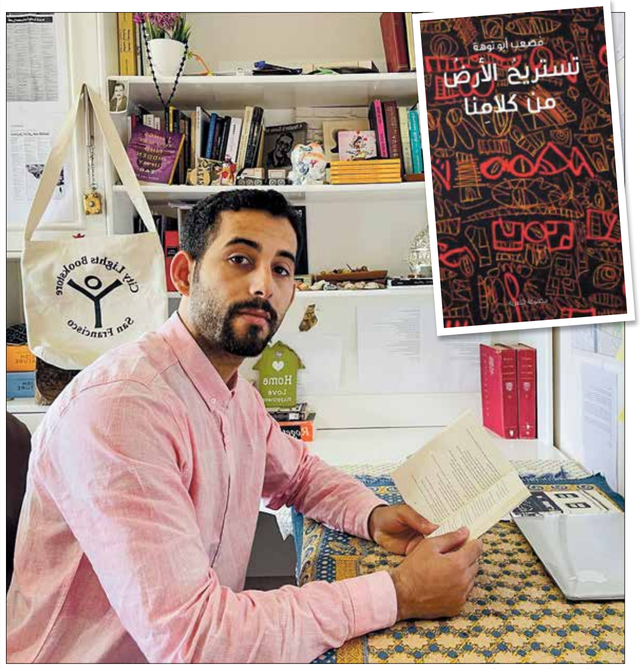

مصعب ابو توهة في بيته قبل تدميره

إطلالة

غربلة روحية لكلّ ما كان واستعدادٌ للآتي

أصداءُ النفس

أتألّم وأقلق على فلسطين كلّ يوم، وأخاف على أحبابي فيها، وأفكّر في اللاجئين القدامى والجدد الذين يقبعون على حافة حياة رثّة، وأكتبُ كفلسطيني

عاطف الشاعر

للحرب وقعٌ لا يكذّبهُ القلب ولا تفوّ منه الروح. منذ حملة الإبادة على غزّة وأنا أمرّ بلحظات عصيبة كلّ يوم. وبما أنّ هذه اللحظات لا تُقارَن مع مَن هُم تحت وطأة الموت والدمار في غزّة، أصمتُ وأحاول ممارسة المهمّات اليوميّة، من تدريس وإدارة وكتابة رسائل وغيرها، كما ينبغي. لكنّ استفحال الأمر والشعور بكمّ وفداحة الظلم على الأهل في غزّة، والدهشة أنّ البشرية الرسمية السياسية الغربية وأدواتها الإعلامية والاقتصادية وغيرها، ممكن أن تكونَ مُجرمة لهذا الحدّ يُرعب، يُرعب لدرجة أنّني أعيد التساؤل في جدوى كلّ شيء أؤمن به، من الإنسانية إلى الضمير إلى الثقة بالآخرين، إلى التعامل معهم، إلى التساؤل عن دور الفرد في مواجهة الظلم والقهر اللذين في النهاية يرتدّان على أهلي والأهل عموماً في غزّة. إن الوقوف عند عتبات النفس والتمحيص فيها أمام مرآة الخراب اليومي الذي يتعرّض له الأهل ليس بالأمر اليسير، إنّه نوعٌ من الغربلة الروحية لكلّ ما كان، واستعدادٌ لما هو آت، وما هو آتٍ غير واضح المعالم، ويهدّدُ بالتيه النفسي والارتباك اللغوي.

أضعُ نفسي أمام معطياتها فأجدها نفساً غير مطمئنّة كما عهدتها. بل هي متوتّرة، قلقة، تُطحَنُ القريحةُ فيها بلا هوادة. إن ابتسمتُ، أو مارستُ الفكاهة، شعرتُ بالذنب، لأنّ هناك مَن يموتون وهناك من يُدفنون أحياءً من بني جلدتي. وهناك من يُدفنون أحياءً من بني جلدتي. وإن فكّرتُ في الواقعية والتقهقر والاستسلام للظلم بحُكم أنه لا حول لي ولا قوّة، نهرتني نفسي: عُدْ إلى ما بكَ من رُشْد وقاوم. وإن قلتُ أبتعدُ وأسلَمُ من ضربات القدر التي تأتي على هيئة أخبار ماساوية كلّ يوم، داهمني الخواء والفراغ. وهكذا أقول لنفسي فلتكن المواجهة، لكن التفكير، ليكن القلق، ليكن التمترس خلف اللغة أداة كما قدّرَ لها أن تكونَ للتعبير عن دنايا النفس وهي تواجه مصير البلاد كفلسطيني، والحياة كفلسطيني والمستقبل كفلسطيني. وهكذا يكونُ ما يكون.

اقتربتُ من غُدائيّة العذابات في شعر محمود درويش، وفزع الإنسانية وسليقة الضوء في عيون غسان كنفاني، وحزن سميح القاسم، وغربة الكلمات في شعر نجوان درويش، وبلاغة وجسارة إدوارد سعيد، ودقة وفصاحة غادة الكرمي، وجدّ وإبداع إبراهيم نصرالله، وكرامة المعنى في رفعت العرعير، وإيمان هبة أبو ندى، وغضب سوزان أبو الهوى، وغموض غسان زقطان، وهدير الشوارع والأسواق في صوت تميم البرغوثي، وصبر وشجاعة وائل الدحدوح، وهيبة العبارات وهالتها في خضمّ قعقعة المعارك في خطابات أبي عبيدة. الأمس قلوبهم جميعاً، وأسيرُ بالدرب، وأوْئِنُ نفسي، فلسطيني معهم. أتألّم كلّ يوم، وأقلقُ على فلسطين كلّ يوم، وأخاف على أحبابي فيها، وأفكّر في اللاجئين القدامى واللاجئين الجُدُد الذين يقبعون في خيام على حافة حياة مهلهلة وزنّة إلى أبعد الحدود، وأكتبُ كفلسطيني.

(كاتب وأكاديمي فلسطيني مقيم في لندن)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

بلادي القدر والهوية، والعالم حبال مراوغة وفنتازيا المترفين

عائلة فلسطينية تستعدّ للإفطار فوق أنقاض منزلها الذي دمّره العدوان، دير البلح، 11 آذار/مارس 2024 (Getty)

فعاليات

تنظّم **الحملة الايرلندية للتضامن مع الشعب الفلسطيني** عند الواحدة من ظهر السبت المُقبل، أمام مبنى وزارة الخارجية في دبلن **المظاهرة الوطنية من اجل فلسطين**. تطالب التظاهرة بإنهاء الإبادة الجماعيّة في قطاع غزّة، وإنهاء الفصل العنصري الإسرائيلي، ووضع عقوبات دولية على الكيان الصهيوني.

حتى الخامس من الشهر المُقبل، يتواصل في «ها تشر غاليري» بـ«جامعة ميتشغان» في مدينة ديترويت الاميركية معرض **حكايا السوف: غزّة تعيش** الذي افتُتح في الحادي والعشرين من الشهر الماضي. تمثّل التظاهرة امتداداً لمعرض «حكايا السوف» الذي اقيم عام 2021، وضمّ عشرات الصور الفوتوغرافية للاسواق التاريخية في عكا والقدس والناصرة والخليل ونابلس ويافا، إلى جانب غزّة.

ضمن فعاليات «ليالي الافلام» في «مترو المدينة» ببيروت، يُعرض عند التاسعة والربع من مساء غدٍ الاثنين فيلم **إن شئت كما في السماء** (2019) للمخرج الفلسطيني **إيليا سليمان**. يستكشف الفيلم مفاهيم الهوية والانتماء لدى الإنسان الفلسطيني كما يعيشها خارج وطنه، والاسئلة التي تحاصره في المنفى.

يُفتتح بعد غدٍ الثلاثاء في **متحف الفن الإسلامي** بالدوحة معرض **حرير العنكبوت الذهبي** الذي يتواصل حتى السادس من تموز/ يوليو المقبل. يضيء المعرض الوثائق التي تصوّر المحاولات التاريخية لتوثيق او إنتاج حرير العنكبوت، ونماذج مصنوعة من حرير العناكب الخازلة المدارية الموجودة في مدغشقر.